قصة شـــاعر (*)

الأستاذ علي الطنطاوي

لقـد وعدت الأستاذ أنور المطار بهذه المقدمة منذ خمس وعشرين سنة من يوم أسمعني أول مقطوعة له . قلت له ستصير يا أنور شاعراً كبيراً وسأصير أنا كاتباً وأكتب مقدمة ديوانك

ولقد صار أنور شاعراً كبيراً فهل صرت أنا كاتباً ؟ إنني كتبت إلى اليوم أكثر من خمسة آلاف صفحة ، أنشأتها إنشاء ولم أجمعها جمعاً ، ونقلتها عن قلبي لم أنقلها عن الكتب ، ولكني لم أصر كاتباً . لأنني أعجز الليلة عن إنشاء أحب الفصول إلى ، وأوجبها علي : هذه المقدمة التي وعدت بهـــا أنور من خمس وعشرين سنة !

لقـد قعدت لأكتبها ، فأحسست أنها قد عادت لي أيامي الماضي التي افتقدتها وأيقنت أنها لن تعود ، ورفع لي الستار عن عالم كله حب وطهر وجمال . عالم عشت فيه أنا وأنور أمداً ، ثم أضعناه وضللنا طريقه . عالم كان حقيقة فصار (مع الأسف) ذكرى ، وكان واقعاً فغدا خيالا ، وكنا فيه فصرنا غرباء عنه ، لا نراه إلا بقلوبنا من خلال ضباب الماضي .

فتحت على أبواب الذكريات ، وكر علي هذا الماضي ، كأنما هو (فلم) حافل بكل جميل ونبيل ، فلم طويل عرض في لحظات وقد تصرمت في تأليفه وإخراجه ثلاثون سنة ، فلم كنا نحن أبطاله وكنا نحن ممثليه ، فصرنا نرى فصوله تعرض علينا من بعيد :

رأيت الفصل الأول من هذا الفلم وكان في المدرسة الثانوية الوحدة في دمشق (مكتب عنبر) في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، عندما أبصرت أنور المطار أول مرة . أبصرت تلميذاً رقيق العود ، دقيق الملامح ، أنيق المظهر ، من غير أن يبدو عليه أثر الغنى ، شارد النظرات ، يمر في ظلال الجدران خفيف الوطء ، حالم الخطى ، كأنه طيف يمر على خيال نائم ، يمتزل التلاميذ لا يكاد يثب وثبهم ، ولا يلعب لعبهم ، فسألت عنه من يعرفه ، فقال : هذا تلميذ شاعر اسمه أنور المطار . وما كنت يومئذ أومن بغير شعراء الجاهلية والشعراء الاسلاميين ولا أرضى لنفسي أن أقرأ شعر المتنبي ولا يرضى ذلك لي مشايخي ، لئلا تفسد (قالوا) ملكتي ، ولم أسمع بعد باسم شوقي ولا باسم المنفلوطي ، فما أبهت لهذا الشاعر الذي اسمه أنور المطار ، ولا طلبت صحبته ، ولا ظننت أنه سيكون بيني وبينه اتصال ، حتى كانت تلك الصادفة السعدة التي كان لها في حياتي وفي حياته أبلغ الأثر :

كانت هذه الصادفة على باب (المدرسة البادرائية) في ليلة من ليالي رمضان ، أيام كان رمضان يزور دمشق حقاً ، وكانت تدري دمشق بزيارته وتحتفل بلقياه ، وكنت خارجاً منها فواجهت أنور داخلا إليها ، فوقف يحييني ووقفت أحييه ، وكلمني وكلمته ، واتصل الحديث ونحن قيام تحت مصباح الشارع ، حتى جاذكر شوقي ، فأنشدني قصيدة له ، قرأها بصوت عذب حالم حنون ، فأحسست أنه كان يمس بكل كلمة من القصيدة حبة القلب مني ، فأحببته . وأنت تلقى المرء أول مرة فتحس بأنك تحبه أو أنك تكرهه ، لا تدري لحبك ولا لكرهك سبباً . سر ركبه الله في نفس الانسان .

وفهمت منه أنه يسكن في (السمانة) وكنت أقيم في (الديمجية) فاصطحبنا ، وذكرت له موت والدي في تلك الأيام ، فطفق يحدثني عن موت والده وهو صغير ، واجتزنا سوق العمارة ، والعمارة في دمشق كحي الحسين والأزهر في مصر ، إن ضاع منك رمضان ببهائه وجماله وجدته في الحسين أو في العمارة ، وإن خفيت عنك معالم حسنه في كل مكان وجدتها في العمارة أو في الحسين ، ولكن ما أدركت تلك الليلة شيئاً من هذا البهاء : لقد كان ما اسمع من أنور أبهى عندي مما أرى ، وجعلنا طريقنا على (الدحداح) ، وهنالك ، على قبر أبيه وعلى قبر أبي ، ولدت هذه الصداقة التي أثمرت شعراً ونثراً وحباً وإخلاصاً ، وكانت من أسعد الصداقات . وهنالك في مدينة الأموات ، عاشت هذه المودة التي لا يستطيع أن يعدو عليها الموت ، لأن الأدب أكسبها الخلود

وكرت فصول الفلم تتقالى ، فرأيتني غدوت صديقه وغدا

(*) مقدمة (ديوان أنور المطار) الذي يصدر في أوائل ديسمبر ١٩٤٨

صديق ، يبثني شكاته وأبثه شكاتي ، ويجد في حياتي مشابه من حياته وأجد في حياته مشابه من حياتي ، قد ألف بيننا الأدب وألف بيننا اليتم ، وإننا كنا مستورين ، على حالة هي فوق الفقر ودون الغنى .. حتى كأنني هو وكأنه أنا .

وصار يسمعني شعره ، فأجد بوا كير شاعر متمكن ، لا محاولات طالب مبتدئ ، وأجد في هذه (البوا كير) قوة في التعبير ، وجدة في التفكير ، وأبياتاً سائرة ، وصوراً رائعة ، فهو يقول في الدموع :

عجبي من لغة غامضة تطرب الناس على شتى لغاها

وهو بيت نبيل في مبناه وفي معناه

ويقول في وصف العمر (عمر البائس) :

والعمر يحكي مستغيثاً علا أنينه ثم تولى صداه

وطفق أنور يرسل قطع الشعر ، شعر القلب ، تترا . يستقيه من معين صاف لا ينضب ، فتتناقله الألسنة ، وتمشي به الصحف ، وتستقبل فيه العربية شاعراً جديداً ملهماً ، ويفتح له أستاذنا محمد كرد على أبواب المجمع ، فيقيم له ولإخوانه الثلاثة حفلة تكريمية ينشد فيها أنور قصيدة من الشعر الجيد ، عنوانها (الشاعر) ، يحسن اختيار موضوعها وألفاظها ومعانيها ، وتشق له هذه القصيدة الطريق إلى مجلة (الزهراء) التي كان يصدرها في مصر خالي محب الدين الخطيب ، والتي كانت أرقى مجلة أدبية في تلك الأيام ، وكنت أود أن ينشرها الشاعر في هذا الديوان (الذي لم يضم إلا الأقل من شعره) ليعرف منها القراء كيف كان أنور ينظم الشعر قبل عشرين سنة ، وكنت أود إذ لم تكن في الديوان أن أرويها كلها ، ولكنها طويلة تملأ صفحات من هذه المقدمة

وشعر أنور في تلك الفترة آهات أبدعها الفن صوراً ، ودموع صاغها البيان شعراً ، ومقطعات حلوة ، ما أدري ماذا زهد الشاعر فيها فلم يثبت منها في هذا الديوان إلا مقطوعة (الحمامة) .

ورأيت فصول (الفلم) تتتالى ... فرأيت فيها كل دقيق وجليل من حياة أخي في الصغر وفي الكبر ، ورفيق في السفر وفي الحضر ، وأنيسي في المسرة وفي الكدر : أنور .

رأيت أيامنا في المدرسة ، ونحن تلاميذ نعيش من الأدب في دنيا الخيال ، إذ أعجزتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو إليه ونتمناه ؛ لا نصدق متى ينقضي النهار ، وننجو من هذيان جماعة الرياضيات ، وطلاسم أصحاب الكيمياء ، حتى نفر إلى كتب الأدب ، نقرأ كل بارع من القول ، ونتدارس كل رائع من البيان .

ورأيت أنور وقد بذ الأدباء جميعاً في (العلم ...) بالرياضيات ، حتى لقد عرف قطر الدائرة ، وأضلاع المثلث ، ولم يبق عليه ليبلغ نهاية العلم إلا أن يعرف القاسم المشترك الأعظم الذي لم يسمع به امرؤ القيس .. رأيته دائباً يكد ذهنه ، ويمسح عرقه ، يحاول أن يفهم سر المعضلة الكبرى التي لا يفهم لها سر ، ويحل المشكلة التي لا يعرف لها حل : الجذر التكعيبي . وأشهد أني جزت الأربعين من عمري ، ورأيت أياماً سوداً ولقيت شدائد ثقالا ، وسلكت البوادي المقفرة ، وركبت البحار الهائجة ، وعلوت متون السحب ، فما رأيت في البر ، ولا في البحر ، ولا في الجو ، شيئاً أشد ولا أصعب ، من هذا الجذر التكعيبي .

ورأيتنا وقد فرقت بيننا الأيام أمداً ، فاشتغلت أنا بالصحافة ، وغامرت في السياسة ، وآثر أنور التعليم ، فكان مدير المدرسة الأولية في (منين) ، في هذه القرية النائمة في حجر (الفلون) الأدنى ، ترى مواكب الأحلام بأجمل (عين) وأشدها سحراً ، وأكثرها فتوناً : عين منين من لم ير عين منين ، ما عرف سحر العيون ، ولا رأى جمال الينابيع ، ولا رشف خمر الجمال على مائدة الطبيعة .. فكنت أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جمعت فيها النعم ، أسكر فيها سكرين : سكر الجمال ، وسكر البيان ؛ وأخضع فيها لسحرين : سحر الطبيعة ، وسحر الشعر ؛ وأجمع فيها الماضي البهي ذكرى حلوة ، والآتي الشهي أملا مرتجى ، في حاضر ضاع في نشوة اللذة حتى لم يبق لنا منه حاضر نحسه وندركه . تقضي الأصباح نستمع إلى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور ، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من قلوبنا الحياة فصارت تحنو علينا ، وتولينا الحب ؛ وأرقنا عليها البيان فأمست تحدثنا ، تتلو علينا أحاديث الغابرين ، وتقص قصص الأسلاف ، من غسان أصحاب المجد المؤثل ، فنحس كأن قد عاد الماضي ، ورجعت (القصور البلق) عامرة ، وبعث المجد ، وعاش الحب ، حتى لكأننا نسمع همس العشاق وآهات نشواتهم ووسوسة قبلاتهم ، ونرى خيالات العناق من وراء الأستار !

أيام سعدنا بها ، وما سعدنا بالصخر ولا بالماء ، ولكن

بأحلام الشباب . رحمة الله على شبابنا ، وعلى تلك الأيام !

ورأيتنا وقد صرت سأنا معلماً في الجبل من دمشق (في الهاجرين) ، وصار هو معلماً في السفح (في الصالحية) ، فكنا نرتقب المساء ارتقاباً ، فإذا حل انحدرت أنا من هنا ، وانحدر هو من هناك حتى نلتقي عند (العفيف) ، نفرح بهذا اللقاء فرح حبيبين التقيا بعد طول الفراق !

ورأيت أيام العراق ، زهرة أيامنا أنا وأنور وزينتها ، أيام بغداد ! سلام المحبة والوفاء منا على بغداد ! وسلام على أهليها ! وسلام على الأثرى والجوادي وروح الراوي وعلى إخواننا وعلى تلاميذنا فيها ... وياما كان أحلى أيام بغداد ، وياما أبهى لياليها ، ويا ما أطيب ما حملنا منها من ذكريات ... على دجلتها سلام بردى ، وعلى نخيلها سلام الحور ، وعلى أبوذيتها سلام العتابا ، وعلى أعظميتها وكرادتها ورستميتها سلام الربوة والمزة والشاذروان

لقد كنا فيها معاً أبداً ، يدرّس أنور في صف وأنا في صف ، وربما دخلت فدرّست مكانه وقعد فاستمع ؛ وربما دخل فدرّس مكاني وقعدت فاستمعت . ونمشي على الجسر معاً ، وما في الأرض مكان أحفل بذكريات المجد والشعر والغرام من جسر بغداد — ونتتبع الشط ، ونرتاد الرياض ، نزور قصور الخلفاء ، ومواطن الشعراء ، وخلوات المحبين ، نؤم الديارات والأطلال والمقابر ، نتنسم عرف الأجداد ، ونستروح رائحة الماضي ، نستنطق دجلة ، ونستخبر الآثار ، ونسأل النخيل ، ونسمع من الأرض ومن الناس أخبار الماضي الفخم ، وأحاديث الجدود المبقريين ، وقصص المجد الذي لم تر عين الزمان ولم يحمل متن الأرض مجداً أجل منه ولا أعظم ، ولا أرسخ أساساً ولا أعلى ذرى . ولم يكن يرانا الناس إلا معاً ، ولا يقولون إلا أنور وعلي ، وعلي وأنور ، وربما خلطوا فقالوا علي العطار وأنور الطنطاوي ...

لقد كانت أيام بغداد أجدى الأيام علي أنور ، ففيها اختزن في نفسه أجل الصور ، وفيها نظم أروع القصائد ، وفيها ابتدأ في حياة الشاعر عهد جديد هو عهد الشعر القومي : شعر الحماسة الوطنية ، فازدادت بذلك هذه الفيثارة السحرية وتراً جديداً ، خرجت منه أطيب النغمات .

رأيت هذا كله فأحسست أن الدنيا تدور بي ، واختلطت علي الصور وتداخلت المشاهد ، فلم أعد أستطيع أن أتبين شيئاً ، ولم أستطع أن أكتب شيئاً ...

ورأيت فصول (الفلم) تتتالى ، فإذا نحن في سنة ١٩٣٠ ، وقد بقيت بلا عمل (عقب عودتي من سفرتي الثانية إلى مصر) ، فأخذني أنور إلى إدارة فتى العرب ، فقدمني إلى معروف الأرناؤوط لأعمل معه في الجريدة ، وقد عملت معه شهوراً ، وصارت الجريدة ملتقانا أنا وأنور ، وصارت مدرستنا الثانية نأخذ فيها من نفس معروف ، ومن أدب معروف . وما رأينا في الأدباء من هو أحلى حديثاً ، وأظهر صفاء ، وأملأ بالأدب الحق من فرعه إلى قدمه من معروف ، إذ كنت تشعر وأنت معه أنه يعلو بك عن المادة ، ويسمو عن المطامع ، ويوصلك بحديثه وابتسامته وطفولته إلى عالم كله حب وعاطفة وتجرد . وشيء آخر كنت أحسه ولا أملك التعبير عنه ، شيء مثل الذي تحسه وأنت تقرأ في رواية معروف (عمر بن الخطاب) ، ومثل الذي تحسه وأنت تسمع حديث أنور ، عندما يكون أنور في سبحاته الشعرية .

ورأيتنا ، ونحن في مطلع سنة ١٩٣٣ ، وقد لقيت أنور ، فقال لي : لك عندي مفاجأة تسرك . قلت : وما هي ؟ قال : لا ، إلا أن تتغدى معي في الدار ، فذهبت معه فإذا هي مفاجأة تسر حقاً : العدد الأول من مجلة الرسالة .

ومن ذلك اليوم دخل بيننا (نحن الاثنين) صديق ثالث ، أحببناه وأحبنا ، وهو الزيات ورسالته ، وصارت الرسالة مدار أحاديثنا ، وصارت مستقر أدبنا ، وصار الزيات أخاً لنا كبيراً ، وصديقاً عزيزاً ، وإن كنت لم أره إلا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة ، ولم يره أنور إلى الآن .

ورأيت أيام المعجزة التي ظهرت على يد الصديق منير المجلاني وكانت تظن من باب المستحيلات ، أيام المجمع الأدبي ، حين ألف بين رجال ما كنا نتخيل أنها تؤلف بينهم الأيام ، لاختلاف مذاهبهم في الأدب وتباعد مسالكهم في التفكير ، وتباين طرقهم في الحياة ، وكانت أيام ألفة ونشاط وأمل ، فأعقبها أيام افتراق وكسل ويأس ... فياليت منيراً الوزير يكمل ما بدأه منير المحامي !

رأيت هذا كله ، فحرت ماذا أصف وعم أتكلم ، وكيف

أستطيع أن أجمع فى كلمات دنيا من العواطف ، وعالماً من الذكريات ، وآلافاً مؤلفة من المشاعر ، كانت أثبت من الزمان لأنها بقيت وقد ذهب الزمان ، وكانت أجل من العمر لأنها هى جمال العمر ؟

رأيت (هذا) كله وما (هذا) إلا تلخيص لحياة أنور الشاعر الذى عاش حياته كلها كما يعيش الشعراء الخلص الملهمون شعراء القلب والروح واللسان ، لا شعراء الألفاظ وحدها والبيان الشاعر فى قلبه المتفتح أبداً للجمال المترع بالخير المتلىء بالحب ، وفى لسانه الذى يفيض أبداً بالبيان ، وينفث السحر الحلال .

وفى هذا التلخيص تحليل شاعرية أنور ، فإذا أخذتم عليه أنه كان حليف الحزن صديق الأسى ، قد وقف شعره على تقديس الألم العبقرى فبكى الأحلام الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة فى (الخريف) . وخلد مظاهر الأسى فى النفس وفى الطبيعة ؛ فاعلموا أنه لم يكن يستطيع غير ذلك ، وأن الشاعر لا يطبع نفسه كما يشتهى ولكن يطبعه الله بطابع البيئة والزمان ، ويكون مشاعره فى طفولته ، قبل أن يشعر هو ليكون مشاعره كما يريد ؛ ولو استطاع أن يصغر فمه أو يجعل أنفه لاستطاع أن يبدل قلبه ويحول عواطفه .

وقد نشأ أنور مثلما نشأت أنا ، وفتح عينه على الدنيا والحرب العالمية قائمة ، ودمشق فى أشد أيامها ، ومظاهر البؤس والألم فى كل مكان ، فكان يرى الازدحام كل صباح على الفرن ، ولم يكن يفتح منه إلا كوة صغيرة يبرز منها رأس الخباز ليعطى السعيد من الناس كتلة سوداء لا يعرف ما هى على التحقيق وإن كان يعرف أن إسمها (الرغيف) ، والجياع ينبشون المزابل ويأكلون قشور البطيخ ، والنساء يعملن من دون الرجال لأن رجال دمشق قد أكلتهم الحرب ، والاسم المرعب إسم جمال باشا يملأ القلوب فزعا. ثم رأى المشانق وشهد المآتم ، فامتلأت نفسه بهذه الصور القاتمة حتى لم يبق فيها مكان لغيرها . وإذا هو رأى الأعراس والأفراح أيام فيصل ، فان هذه الأيام لم تكد تبدأ حتى انتهت ، ولم نكد نستمتع بفرحة الاستقلال فى حفلة التتويج ، حتى ذقنا غصة الانتداب فى مأساة (ميسلون) .

فلا تلوموا أنور إن كان الحزن طابع شعره ، وأن الفرح فيه مثل الفجر الأول لا يكاد يبدو بياضه فى الأفق حتى تبتلعه بقايا الليل فهذا هو السبب .

ولا تلوموه إن تنزل ، فتكلم عن الرؤى والأحلام ، وترك الحقائق وعلا إلى سماء الخيال ولم ينزل إلى أرض الواقع ، وأنه عمم وجمجم ، فلم يخصص ولم يصرح ، فإن البيئة التقية التى نشأ فيها أنور لم تكن ترى فى الحب إلا (ذنبا) على صاحبه أن يستغفر الله منه ، وأنا أؤكد أن أنور ، كـ (نصيب) الشاعر الذى سمى قوسه ليلى ليتنزل بها . إن أنور لم يتصل فى حياته بفتاة على نحو ما يفعل شباب اليوم ، وإنه كان أعف وأشرف من أن يفكر فى هذا أو يحاوله ، فمن هنا جاء الذى تلومونه عليه .

ولا تأخذوا على أنور أنه حبس نفسه فى هذه الدائرة الضيقة وقصر عليها شعره ولم يخرج إلى الفضاء الأرحب ، ولم يعش فى الدنيا الواسعة التى يعيش فيها أكثر الشعراء والناس ، فإن أنور أمضى صباه كما أمضيت صباى فى عالم ضيق كانت حدوده تلك المسالك الملتوية الموصلة إلى مكتب (عنبر) ، وتلك الساقية الصغيرة المطيفة بمقبرة الدحداح ، وذلك الطريق الموحش الذى كان ينتهى عنده العمران ، ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص ، والذى كان اسمه (قفا الدور) فصار يسمى اليوم (شارع بغداد) أفخم شوارع دمشق الجديدة .

إن أنور يخشى اليوم أن يفارق عالمه الشعرى الذى أحبه ، أو يتجاوز حدوده كما كان يخشى من قبل أن يتجاوز (قفا الدور) ، أو يتخطى (مكتب عنبر) ولكن عالم أنور الشعرى ، عالم واسع على ضيقه لأنه عالم القلب ، ولأنه متصل بالله ؛ وقد تضيق على المرء الأرض كلها إن اقتصر عليها ، ولا يضيق عليه شبر واحد مما حتى اتصل بالسماء .

وعاش أنور فى عهد جد ويقظة ، وإقبال على العلم والعمل ، وحفظ أنوراً كثر من عشرة آلاف بيت من جياد أشعار العرب ، فجاء أسلوبه كالماء الصافى فيه عذوبة ولين ، وفيه إن تدفق قوة ومضاء . وكان شعره أثر الجد ومؤهلات الخلود ، لا كأشعار أصحاب المناسبات وطالبى إعجاب العوام . وكان نسجه كالحرير المتين المفوف المنقوش النقش البارع ، لا كالنسج الرخيص الذى يتمزق من اللمس ، وتذهب ألوانه من رؤية الشمس .